

السرد الة من آليات الكتابة في الرحلات الجزائرية

الأستاذ: الحاج صادق
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

السرد تأليف شفوي أو كتابي، يقوم به المؤلف هو السارد، يعرض فيه أحداثا جرت في أماكن خاصة وأزمنة معينة، قامت بها شخصيات مختلفة فاعلة وثنائية، وقد يكون السارد أما شخصية مشاركة في الحدث مع بقية الشخصيات أو مجرد راوي يحكي الحدث، كما قد يكون راويا وشخصية في آن واحد.

إن عملية السرد التي يقوم بها السارد، ينتج عنها نص قصصي يشتمل على محورين: اللفظ القصصي أو الخطاب، والمرفوض القصصي أو الحكاية. ومنه يميز السرد بزمانين: زمن اللفظ وهو زمن السرد أو القص، وزمن المرفوض وهو زمن الحكاية أو الوقائع.

إن السارد لا يعبر عن ذاته فحسب، بل يتجاوزها إلى غيرها، فيكون السارد إذن ضميراً لأدب ما، أو شعب ما، أو أمة ما، في زمن ما، وهو الذي يسوق الحكاية من وجهة نظر عليا، لأنه هو الذي يتابع تطورها إلى أن يبلغ بها المنتهى الذي يود بلوغه.

وبذلك نستطيع أن نتناول الظاهرة السردية في الرحلات الجزائرية، بالنظر إلى عدة جوانب منها: علاقة النص السردية بمنتجه (السارد) ودرجة أهميته بين النصوص المختلفة، وهو ما يدخل في مجال مستويات السرد، وبالنظر أيضا إلى أنماط السرد باختلاف الزمن فمن ماضي وحاضر ومستقبل.

إن الهدف من دراسة المستويات السردية في الرحلات الجزائرية، هو إبراز الدرجة التي يحتلها كل نص سردي بين النصوص السردية الأخرى المؤلفة، ومنها الوصول إلى التمييز بين السرد من الدرجة الأولى وهو ما يسمى بالسرد الأساسي أو الابتدائي، والسرد من الدرجة الثانية أو السرد

الثانوي أو الفرعي. ثم إدراك العلاقات الكائنة بين المستويين، ولا تتم دراسة المستويات السردية في الرحلات الجزائرية، إلا بالنظر إلى طبيعة الأحداث المسرودة إذ منها ما يكون ذا صلة مباشرة بالرحلة المنجزة فعلياً، ومنها ما يكون بعيداً عن موضوعها في الزمان والمكان، إلا أن أسباباً ودواعي خاصة اقتضت سرد تلك الأحداث.

إن الرحلة من فنون الأدب العربي العريقة، وهي كما رأى شوقي ضيف، من أهم فنونه، لأنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، وهو قصوره في فن القصة، كما أنها من الألوان التعبيرية الأولى، التي تعتمد السرد بضمير المتكلم، وتعبر عن الأنا مع انفتاحها على الآخر، وتقديمها صورة عنه، منطبعة بأحاسيس الإعجاب، أو الاستغراب، أو الاعتزاز بالذات، وهي من الألوان القصصية، التي توفر لقرائها المتعة، والتشويق، وتخرجه بالكثير مما يجعل استناداً على ما يولده فعل السفر، والتنقل من أحداث مترابطة، ومشاهدات ورؤى متجددة بتجدد المكان، والزمان، وحالات نفس الرحالة.

إن الرحلة تتميز بخصوصيات عن باقي الأنواع الفنية الأخرى، كالمقامة، والسيرة، والرواية، والقصة، رغم ما لكل فن من خصوصية، وجمالية.

لقد احتوت الرحلات الجزائرية نحو المشرق في العصر الحديث على مادة علمية، جغرافية، رغم أن هذه المادة في الرحلات تختلف اختلافاً جوهرياً كما نجد في كتب الجغرافيا الطبيعية، أو البشرية، حيث أن الرحالة الجزائري كان يعتني برسم المسار المتبع في رحلته نحو المشرق، الذي ضم الطرق البارزة الواقعة ما بين الجزائر ومصر، ومصر والحجاز، والطرق الأخرى المؤدية إلى بلدان الشام، والعراق، والكويت، وسلطنة عُمان، وتقدم معارف عامة عن الأماكن المجتازة، أو المقصودة، كالموقع، والخصائص الطبيعية للأرض، والهواء، والماء، وتعتبر هذه الموضوعات في مجال الأدب، جزئيات من جانب المحتوى، أو ما يعرف بالمتن، أو المضمون، وهو في لون الرحلة، سرد لأحداث سفر الرحلة، ومراحله،

وبالتالي تعيين لبرامجه السردية الرئيسية، وهو تحديد الإطار المكاني، وتعريف ببعض خصائصه منها الخصائص الطبيعية.

يمكن النظر إلى الرحلة كما يقول الدكتور شعيب خليف في كتاب الرحلة في الأدب العربي، مما تتوفر عليه معطيات مكثفة بالمقارنة مع باقي الأشكال التعبيرية في التراث السردى العربي، وقد عرفت البشرية باعتبارها فعلاً إنسانياً في كل المراحل وبأشكال مختلفة، حاملة لتجارب وخبرات مختلفة اختلط فيها اليومي بالمتخيل بتلوينات وإشارات دالة. وفي دراسته للرحلة المغاربية في القرن التاسع عشر الميلادي مستويات السرد نشرها على موقع الفرات، يسعى محمد**** بعيداً عن استعراض مضامين الرحلة إلى المحاورة الجانب البنائي للرحلة قبل الحديث عن المحتوى، مادامت الرحلة نصاً***** بالمعنى الإيجابي-بحسب رأيه- يأخذ لون كل فضاء سواء أكان مادياً أو مجازياً، يمد به الرحالة في المغامرة الجريئة قد تكون الرحلة حجازية الموضوع ولكنها متعددة طرائق الكتابة، بحكم انتقالات الرحلة بين الفضاء الأليف والفضاء الغريب بين لغة المناسك ولغة المعجم الجديد غير المؤلف، بين صورة العروض والأطوال والصورة الواقعية... صورة المراثيات المرتبطة بالنشر اليومي المنحط على حد تعبير لوكاش.

إن اللغة قناة الاتصالين القارئ والقصصي، وأفضل الأساليب للتعبير عن هذه اللغة هو الأسلوب الطبيعي السهل المفعم بالحياة، ونعني بالأسلوب الطبيعي "القاص -الإنسان- الكاتب..." فالكاتب الذي يتمتع بالدعابة والروح المرحية تكون خصاله الهامة هندسية مبعثرة في إنحاء قصته، بينما ثقل قلوبنا وصدورنا من انعكاسات صاحب القلم المعتم الأحاسيس. وقد يلجأ الكاتب إلى اختيار بعض الزخارف، ولكن دونما كد أو تعب وبغفوية، وإلا أصبح القصص مصطنعاً بعيداً عن الطبع. وبإمكان الأديب أن يجمع في القصة الواحدة أكثر من أسلوب من هذه الأساليب (طريقة السرد المباشر) و(الترجمة الذاتية) و(الرسائل أو الوثائق). وما يهمنا في هذا المقام من هذه الأساليب هو طريقة السرد المباشر التي استعملت في الرحلات خاصة الحجازية في العصور الحديثة.

والراصدون لهذا النوع السردى الجفويون به يتعقبونه في مضانه عصرًا عصرًا في العصر الحديث، ولما جاء عصر النهضة وأصبح معه (أدب الرحلة) نوعاً أدبيا متميزاً، له سماته وخصائصه وطرائق أدائه فخص في تكوينه الرحالة والمكتشفون، والمستشرقون والمناديب، وذو السفارة السياسية والدينية والعلمية.

1- تعريف السرد:

لقد عرف رولان بارن السرد بقوله: «إنه مثل الحياة نفسها متطورة من التاريخ والثقافة"، ونعلق على هذا التعريف بالقول: "إن هذا التعريف نجده عاماً، فالحياة نفسها عصية على الإنسان الكائن المتمرد على كل تعريف أو قانون"، ونحن بحاجة ماسة إلى فهم السرد بوصفه أداة من أدوات التعبير الإنساني، وليس بوصفه حقيقة موضوعية تقف في مواجهة الحقيقة الإنسانية.

تنبه الناقد هايدن وايت إلى هذه الأداة وذلك عند ما رأى أن القضية الجوهرية في السرد تكمن في فكرة (كيف تترجم المعرفة إلى أخبار) و (كيف نحول المعلومات إلى حكي، كيف نحول التجربة الإنسانية إلى بني من المعاني التي تتخذ شكل الخصائص الثقافية المرتبطة بالزمان والمكان والناس والأحداث). ويعمل السرد على صياغة ما نريده بصورة تتجاوز حدود اللغة التي تتكلم بها- وإن كان السرد القصصي يتخذ من اللغة وسيلة له- فهو يحكي عن طريق اللغة السلوك الإنساني والحركات والأفعال والأماكن وهي أدوات عالمية الدلالة بخلاف اللغة ذات الصبغة المحلية، ومن ثم فإن تحويل التجربة إلى حكي معناه إخراج لها حيز اللغة الإنسانية الشاملة بخلاف ما لو صبغت على هيئة تأملات أو تقارير.

وقد أصبح السرد نفسه عندما يتجلى في عمل ما، مثل (القصة - المسرحية - الرواية) عوضاً أو بديلاً عن المعاني عن التجربة وبخلاف التعبير اللغوي المباشر الذي يشير على التجربة ويترجم لها أو يعرف بها، لكنه لا يكون بديلاً عنها، إلا إذا كان فناً يقدم بدائل موسيقية أو تصويرية أو سردية، وليس هناك حاجة في داخل السرد إلى شرح فكرة أو تلخيص مغزى أو توجيه نصيحة أو موعظة، لأن التركيب السردى نفسه يقول،

والصياغة نفسها هي التي تكشف عن المعنى أو عن التجربة، وأي تدخل مباشر من هذا القليل داخل النسيج يعد شيئاً زائداً عن السرد ومفسداً لبنائه.

ويشير السرد عموماً إلى كل ما يمكن أن يؤدي قضيّاً، سواء كانت الأداة المستخدمة لتمثيله لفظية أو غير لفظية، إنه نوع من السلوك الإنساني توصل بواسطته الكائنات البشرية ضروباً معينة من الرسائل، وقد تتنوع صيغ السرد على نحو عادي، إذ يمكن أن يدوي شفاهاً أو مكتوباً، أو دون أداة لفظية، وذلك عبر الإيماء والصور وغيرها. ويشير السرد أيضاً إلى مجمل التقنيات والأدوات التي تشكل مجتمعه بنية النص السردية.

وكثيرة هي أشكال السرد، إذ كل عمل سردي له الشكل الخاص به، وإذا كان هذا التنوع في استعمال أشكال السرد يفضي إلى صعوبة بالغة فيما يتعلق بالدراسات النظرية، وقد حاول المنظرون حصر جميع الأشكال في نطاق ضيق يمكن من دراستها مجتمعة. ومن أشكال السرد "السرد المفصل للأحداث" وهو إذ يتم سرد الأحداث بالتفصيل دون اقتضاب وهو الشكل الذي استعمله الرحالة الجزائريين خاصة في رحلاتهم الحجازية في العصور الحديثة وعلى العكس من الحذف أو المجمل يكون المشهد تركيزاً على بعض الأحداث التي من البديهي ستكون هادفة.

إن السرد قائم في الأسطورة والحكاية، كما هو قائم في الكوميديا والتراجيديا، وقائم أيضاً في الرواية والقصة والقصة القصيرة. والسرد نقل الحدث أو مجموعة من الأحداث صورتها الواقعية أو المتخيلة إلى صورة لغوية، ويختار كاتب القصة عادة واحد من ثلاث طرق للسرد وهي: الطريقة المباشرة، وطريقة السرد الذاتي والوثائق (المذكرات والاعترافات).

وقد عقد مؤتمر في جامعة اليرموك بعنوان "فن السرد في الأدب العربي"، حيث قال الدكتور محمد الزعبي: "إن فن السرد في مختلف الأجناس الأدبية يكتسب أهمية خاصة، فقد فتحت نظرية آفاقاً جديدة من الكشف وتقنيات الكشف عن السردية أشكائها ووظائفها ودلالاتها". أما الدكتور عادل فريجات من جامعة دمشق فقد قال: "إن فن السرد ينضج

تدريجياً مع الزمن في عالمنا العربي، ويتميز بأنه مرن ومطوع من خلال تكاثر التجارب الإبداعية فيه وتعدد أشكاله".

السرد تأليف شفوي أو كتابي، يقوم به مؤلف هو السارد، يعرض فيه إحداثاً جرت في أماكن خاصة، وأوقات معينة، قامت بها شخصيات مختلفة فاعلة وثنائية، وقد يكون السارد إما شخصية مشاركة في الحدث مع بقية الشخصيات، أو مجرد راوٍ يحكي الحدث، كما قد يكون راوياً وشخصية في آن واحد.

إن الراوي إذا كان بعيداً عن الشخصيات الفاعلة للحدث، فإنه يعتمد ضمير الغائب، وضمير المخاطب، يظهر ذلك عن طريق الحوار، الذي هو جزء من السرد، أما إذا كان السارد شخصية فاعلة فإنه يعتمد في سرده على ضمير المتكلم فقط.¹

إن عملية السرد التي يقوم بها السارد، ينتج عنها نص قصصي يشتمل على محورين: اللفظ القصصي أو الخطاب، والملفوظ القصصي أو الحكاية، ومنه يميز السرد بزمنين: زمن اللفظ وهو زمن السرد أو القص، وزمن الملفوظ وهو زمن الحكاية أو الوقائع.

لقد أعطى عبد الملك مرتاض تعريفاً للسرد فيقول: "السرد في أصل اللغة العربية هو التتابع الماضي على سيرة واحدة... ثم أصبح السرد يطلق على الأعمال القصصية على كل من خالف الحوار، ثم لم يلبث أن تتطور... إلى معنى اصطلاحى... بحيث أصبح يطلق على النص الحكائي أو الروائي أو القصصي برمته. فكأنه الطريقة التي يختارها الروائي... ليقدم بها الحدث إلى المتلقي".²

ويرى أيضاً أن السارد لا يعبر عن ذاته فحسب بل يتجاوزها إلى غيرها، فيقول: "يكون السارد إذن ضميراً لأدب ما، أو أمة ما، في زمن ما، وهو الذي يسوق الحكاية من وجهة نظر عليا، لأنه هو الذي يزيحها، ويرعى نسيجها؟، ويتعهد نشأتها، ويتابع تطورها إلى أن يبلغ بها المنتهى الذي يود بلوغه".³

واستنتاجاً مما سبق نستطيع القول أن الظاهرة السردية في الرحلات الجزائرية في العصر الحديث، وانطلاقاً من عدة جوانب ومعطيات مثل:

علاقة النص السردي بمنتجه (السارد) ودرجة أهميته بين النصوص الأدبية المختلفة، وهذا يدخل في مجال مستويات السرد، وبالنظر أيضا إلى أنماط السرد، باختلاف الزمن فيه من ماضي وحاضر ومستقبل.

ويساعد تغير السرد من حيث الأساليب والطرق المتبعة في تقديم الحدث عند السارد، خاصة بالنسبة للرحلات، إلى اكتشاف تقنيات سردية خاصة، كأسلوب التشويق المدد السردى، وتنوع الصيغ بين المتكلم والغائب والمخاطب. كما أن النشاط السردى للراوي، يجعل الباحث يبحث في وظائفه المتنوعة بتنوع الحالات والدواعي، كغرض التعبير، أو التأثير، أو الإقناع، أو التعليق، أو الاستشهاد، أو غيره من الأغراض.

2- زمن السرد:

يتحدد زمن السرد حسب موقع السارد الزمني بالنسبة لزمن الحكاية أي (الرحلة)، وتختلف أنماط السرد، باختلاف زمنه، والذي يظهر مع الصيغ المستخدمة أثناء سرد الأحداث، وهي صيغ: الماضي، الحاضر، والمستقبل، إذ يسمى السرد بصيغة الماضي سردا تابعا، وهو سرد تقليدي للأحداث اعتمده المؤلفون كثيرا، بينما يسمى السرد بصيغة الحاضر سردا آنيا، يظهر نوعا من الإبداع، فيصبح الحدث فيه مسائرا للتأليف والقراءة، ويدعى السرد بصيغة المستقبل سردا متقدما، وفيه يكون السارد والذي يجب أن يكون الفاعل للمتحدث المسرود، في زمن سابق لزمن الحدث. ونلاحظ أن أكثر أنماط السرد المستعمل في الرحلات الجزئية، هو السرد التابع، وقلة السردين: الآني والمتقدم.⁴

إن الطريقة في تحديد زمن الرحلة ترتبط بكون السرد يتميز بحركته التعاقدية في المكان والزمان فالزمن مجزأ على مستوى السرد، لكنه يقوم على التعاقب والخطية في حركة الرحلة، مع العلم أن هذا الزمن هو زمن الخطاب وليس الزمن الموضوعي للرحلة، لأن هناك فجوات تظل موجودة في هذا الزمن من جهة، ومن جهة أخرى لأن الحركة أو الانتقال في المكان تخضع لمشية السارد الذي يقدم ما يريد من وقائع الرحلة ومشاهداتها.

يستخدم السارد الذي يمثل الشخصية المركزية في السرد ضمير الجمع الدال عليه وعلى الأشخاص الذين يرافقونه في الرحلة، وضمير المفرد المتكلم ويعتمد على الوصف في دعم حركية السرد، والزمن في الرحلة هو الزمن الذي يبدأ مع بداية الرحلة.

لا يكتفي الرحالة الجزائريين بالسرد والوصف بل يستخدموا الوثائق والرسائل التي يتم تبادلها بينهم وبين علماء المناطق الحجازية، وتظهر حركة السرد التعاقبية في الزمان من خلال الانتقال في السرد من زمن حكاية الرحلة إلى زمن حكاية أخرى، أي أن حركة السرد تمضي بين زمن الرحلة وزمن ما قبل الرحلة استخدام صيغة السرد الاستعادي أو حركة الزمن الهابط، وهذا يجعل حركة الزمن تمضي نحو الأمام والخلف وفق حركة السرد، إلا أن السارد يتبدل موقعه إذ تحول إلى مسرور له عندما يعتمد على سارد مجهول ولكنه ثقة⁵ روى له تلك الحكاية أو الواقعة التي يستحضرها متن السرد، وقد يتم الانتقال من زمن إلى آخر وفق مقتضيات أسلوب السرد وموقع شخصية السارد فيه، دون تمهيد أو إشارة إلى ذلك أو إلى تحول مع السارد إلى مسرود له، فالراوي أو شخصية السارد في أدب الرحلة هي شخصية الراوي العليم الذي يعتبر مؤلفاً ذا سلطة يحدد ما تشعر به كل شخصية وما تفكر فيه أو تريد أن تفعله، فهو يقدم دائماً صورة واسعة من الحياة أو يركز من خلال التفاصيل على مشاهد معينة أو يقدم انطباعاته عن كل ما يحدث أو يقوم بالتعليق على ما يحدث، فالسارد في الرحلة هو راوي يهين على السرد ويعمل باستمرار على تقديم وجهة نظره لأنه يمثل صاحب المعرفة التي يطلب من السامع أن يعلم بها ويمكن ملاحظة ذلك من خلال استخدامه لفعل الأمر أعلم كذا وأعلم كذا، إذا كانت هذا الأسلوب يتصل بالوظيفة التعليمية لأدب الرحلة فإن ذلك يؤكد على طبيعة شخصية الراوي العليم في هذا الأدب، ولما كان هذا الراوي يمثل مرجعية متكاملة على المستويات الجمالية الدينية والمعرفية فإن وجهة النظر تكون نابعة من هذه المرجعية المشكلة مسبقاً لاسيما اتجاه الآخر باعتباره المختلف في العادات والتقاليد والدين ومنظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية ولذلك كان لابد من التمييز

بين الجزائر والحجاز أو أهالي المشرق العربي، وضمن الرحلات الجزائرية- الحجازية في العصور الحديثة، هناك إشارات دائمة إلى ذلك وتركيز على التعريف بالعادات والتقاليد سواء على مستوى الزواج أو اللباس أو الحكم، ويستعين الرحالة بالرسوم لمساعدة القارئ على إيضاح ما صعب تخيله من خلال السرد غرابته ويتصل بمستوى الوصف الذي يمثل أحد مستويات السرد الأساس الذي يقدم صورة لما يراه الرحالة من العالم الذي يتعرف عليه، وليست صورة للعالم كما هو، الأمر الذي يجعل الموصوف يخضع لمرجعية السارد التي تحدد مضمون رؤيته إلى الأشياء الموضوعية في الرحلة التي تتألف من المشاهد المتتالية التي تعني كثيراً بذكر التفاصيل من خلال الوصف المباشر لتقديم المعرفة المتوخاة من قبل السارد أو الرحالة إلى مستمع لا يعرف أي شيء عن المكان وحياة الناس وعاداتهم وأنماط سلوكهم.⁶

إن المشهد يقدم الزمان والمكان والشخصية والمرافقين للرحلة، ويتم تقديم هذه العناصر داخل إطار محدد، وهنا تحصر الوظيفة التعليمية والإخبارية لأدب الرحلة وتحدد العلاقة على مستوى الخطاب بين السارد والمسروود له معتمداً على المرجع التاريخي، ومن المعروف إن الاهتمام بالوصف يبطل حركة السرد ويوقفه لاسيما عندما يكون الاستطراد والاستعانة بالشواهد لتأكيد وجهة نظر الراوي والتعليق على الحكاية أو المشهد.⁷

يعتمد السرد على الوصف والخبر والوثيقة، وتتبدى أهمية الخبر من خلال المكانة الكبيرة التي يحتلها في الدين الإسلامي وفي علوم الدين التي يحتاج إليها صاحب الخبر لكي يتم الاطمئنان إلى صدقه، ويمكن للقارئ أن يدرك معرفة الرحالة بذلك من خلال الابتداء بالاستشهاد بالنص القرآني والحديث وإحالة العلم والمعرفة الأكيدة بما يورده من وقائع وأخبار إلى الله إذ يختم، أو الحكاية بالقول والله أعلم ما يدل على أن الرحالة يولي أهمية خاصة إلى المسروود له طالما أنه يسعى لتأكيد علمه ومعرفته بعلوم الدين، أي أن يحاول أن يجعل نص الرحلة فضاءً ثقافياً مشتركاً بين السارد والمسروود له حتى يستطيع تأمين الاستجابة والقبول من المتلقي، والواقع أن

الرحالة يسعى بمخزونه الثقافي والديني لتأكيد مشروعية بعض الظواهر المخيفة والأفعال التي يمارسها السلطان أو الحاكم في تلك الديار، كالأعمال القبيحة وقطاع الطرق التي تطرق إليها الأمير عبد القادر في رحلته إلى الشام.

تشكل الرحلات الجزائرية فضاء الفرجة وذكر الغريب والعجيب الأمر الذي يجعل المكان في بعض الرحلات يتحول إلى فضاء فرجة يكشف عنه السارد وفق ما يراه مناسباً، إذا يمكن أن يقدم أم يؤخر في عرض أطوار الرحلة، وفي هذه الطريقة التي يكون فيها السرد ذاتياً من خلال استخدام المؤلف لضمير المتكلم الحاضر، وإن كان هذا الضمير يأتي بصيغة الجمع للدلالة على مجموع الناس المشاركين في الرحلة، فإن الوظيفة الاتصالية لخطاب هذا النوع من الرحلة توحى بالمباشرة في العلاقة بين ضمير المتكلم وضمير المخاطب عندما يستخدم السارد صيغة فعل الأمر في الخطاب أعلم أن كذا ولتعلم أن كذا، ويلعب الوصف المباشر دوره في دعم حركية السرد في حين أن الوصف يقوم بتعطيل حركة السرد في نص الرحلة، كذلك يساهم الاستطراد واستدعاء الشواهد الشعرية والدينية للتعليق على الموضوع في وقف حركة السرد وتعطيله إضافة إلى الوصف المطول للمكان والأشياء، الأمر الذي يجعل المؤلف يعود إلى تقديم السرد القائم على التنويع في الصيغ الأسلوبية للسرد، وتعتبر هذه الطريقة في السرد هي الطريقة الشائعة في أدب الرحلة.

يقوم بعض الرحالة الجزائريين وخاصة في العصر الحديث، وعلى خلاف الرحالين الآخرين بتدوين في نهاية الكتاب معلومات مهمة حول كيفية طباعة هذا الكتاب في طبعته الأولى واسم الشخص الذي قام بالطباعة وكذلك تاريخ إنجازها، وعلى غرار طريقة الابتداء في بداية كل فصل بالحمد والثناء وذكر سر الخالق في خلقه وحكمته من ذلك يحتتم كتابه بالشكر والتطلع إلى بلوغ الخير من وراء هذا الكتاب في النهاية كما في البداية على إظهار التواضع.

ومن خلال ما سبق ذكره في مجال زمن السرد، يمكن أن نميز بين ثلاثة رؤى سردية هي:⁸

أ- الرؤية من الخلف: وهي معرفة السارد أقوى من معرفة الشخصية والدليل على ذلك وصفه لحالتها النفسية إضافة إلى استعمال ضمير الغائب.

ب- الرؤية مع أو المصاحبة: يتساوى السارد في المعرفة مع الشخصية، وغالباً ما يستعمل ضمير المتكلم.

ج- الرؤية من الخارج: يكون فيها السارد أقل إدراكاً من أي شخص، والضمير المستعمل المتكلم والمخاطب.

كما يمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من الزمن:

أ- الزمن التصاعدي: هو الحكى الذي يحترم تسلسل الأحداث حيث يتجه زمن القصة من البداية إلى النهاية.

ب- الزمن التنازلي: حيث يبدأ من القصة من النهاية ثم يعود إلى البداية، كما هو الأمر بالنسبة للقصص البوليسية التي يبدأ فيها السارد بجريمة قتل ثم يعود إلى ذكر الأسباب.

ج- الزمن المتقطع: وهنا يعرف زمن القصة تقطعا في تسلسل الأحداث، ويعتمد هذا النوع على تقنيتين وهما : الاسترجاع وتعني ذكر أحداث وقعت في زمن الماضي (والاستشراف وتعني ذكر أحداث قد تقع لاحقاً).

3- المكونات السردية:

3-1- الحكى: يستند النص الرحلي كغيره من النصوص السردية إلى بنية حكاية، تؤدي المتواليات السردية، ووصف مراحل السفر ومناسك الحج، تتشكل معطيات الرحلة، ومن هنا تتميز الرحلات الجزائرية ببعد سردي حكاية واضح.

3-2- الجملة: تتكون بنية الحكى في النص الرحلي من عناصر أربعة، نقف عندها في الحيز التالي:

أ- الخبر:

إذا كانت الجملة الإخبارية في الرحلة جملة خبرية بامتياز، إلا أن هذه الجملة ترتبط بالأحداث التي يسوقها الرحالة في شكل مترابط، متناسق،

وبالنظر إلى الخبر في الرحلات الجزائرية نجدها لا تخرج عن الأشكال الآتية:¹⁰

- **الخبر التاريخي والخبر الاجتماعي:** إن التاريخ مكون مهم من مكونات الرحلة بشتى أشكالها، ونلمس في الرحلات الحجازية معطيات تاريخية مهمة تتعلق بواقع البلاد العربية خلال القرون الماضية، ومن بين الأخبار نذكر الخبر الذي يصور الرحالة الجزائريين إلى البقاء المقدسة والخبر التاريخي في الرحلة لا يحتاج إلى تعليق وشرح، بما أنه مثال للسرد الرحلي الذي يستند إلى هذا النمط من الأخبار لبناء عوامله، أما الخبر الاجتماعي، فيطغى على الرحلة نظراً إلى أن الرحلات الجزائرية وخاصة الحجة تتيح للرحالة فرصة الوقوف على وضع مجتمعات عديدة عبر اختلاطه بشعوب هذه البلاد والوقوف عند عاداتهم وطبائعهم.

- **الخبر الحضاري/العمري:** نعتي بالخبر الحضاري/العمري ما يسوقه الرحالة من معطيات تتعلق بأشكال البناء وال عمران، وما يرتبط بخصائص هذا العمران وتمييزه الحضاري، ولطالما عبر الرحالة الجزائريين عن إعجابهم بالعمارة الإسلامية العربية، إن هذا الخبر يتضمن إشارات جليلة إلى مكانم إعجاب الرحالة الجزائريين بالمعمار العربي الإسلامي، وقد عبر الرحالة الجزائريين عن إعجابهم واندھاشهم بأشكال تشييد البيوت في مكة والمدينة وفي كل الأماكن التي مروا بها.

- **الخبر السياسي/الاقتصادي:** أفردت لهذا النمط من الخبر هذا الميز نظراً إلى العناية التي حظي بها لدى الرحالة الجزائريين، حيث اهتموا بتناول أخبار سياسية واقتصادية في تلك الفترة تتعلق بالدول المجاورة، وبصدى السياسة والنظام المطبقان في الدول التي مروا بها، كما أنهم سردوا إلينا مختلف المداخل الاقتصادية لهذه الدول كالزراعة والصناعة والتجارة.¹¹

ب- الفعل:

تعد الأفعال محركات فاعلة لبناء الجملة السردية والمعمار الحكائي للرحلة، ومن ثم يمكن تقسيم هذه الأفعال في نص الرحلة إلى نوعين:

- **بنية الأفعال الانطلاق:** وهي أفعال ترد في مواقع مختلفة من الرحلة موظفة ضمير المتكلم الجمع مرتبطاً بالفعل الماضي أو مسبقاً به، وفي

الرحلات الجزائرية نجد مثل هذه الأفعال منذ بداية النص مثل القول:
خرجنا يوم 01 ربيع الثاني من مدينة ما، وبعد عبور...وصلنا إلى....

- **بنية أفعال التجسير:** وهي أفعال ترتبط بين السرد والوصف، وتصل الأحداث بعضها ببعض، وفي الوقت نفسه توهم بالأخبار عن حقائق الرحلة وعن مجريات مناسك الحج وأفعال الرحالة.

ج- المرجع:

يُحِيلُ النص الرحلي على واقع خارجي، وعلى مكان وزمان محددين تاريخياً وجغرافياً، لكن هذه الإحالة على العوالم الخارجية تصير مكوناً جوهرياً من مكونات فن الرحلة وعنصراً مهماً في نسيجها السردية، وهكذا نجد الرحلات الحجازية-الجزائرية، قد أحاديث على وقائع تاريخية وأحداث ارتبطت من جهة برحلة الحج ومناسك الفريضة الإسلامية، كما أداها الرحالة ورفاقه، ومن جهة أخرى أحالت على أحداث تاريخية تتصل بالزمن بما عرفه من صراع سياسي/اقتصادي ومن منافسة وحروب، وأثناء حديثي عن أنواع الخبر لمست مدى عناية الرحالة الجزائريين بالمعطيات الاجتماعية والحضارية والعمرانية والسياسية والاقتصادية، وهي معطيات لها مرجع خارج النص الرحلي، لكنها تشكل سداً ولحمته.¹²

د- الوصف:

يعتبر الوصف في الرحلة بشئٍ أطيافها مستوى من مستويات السرد، وخادماً من خدمة، وعنصراً مكملاً لوظيفته الحكائية. ويقوم الوصف برصد غرائب ما يشاهده الرحالة، أو بتدقيق المشاهد التي يمر بها وتصويرها تصويراً فنياً، وفي معظم الرحلات الحجازية-الجزائرية تم الحرص على وصف الأمكنة وما يتعلق بمشاهدتهم، وما يرتبط بمناسك الحج وشعائره، ولهذا نجد أن الوصف يؤدي دوراً حيويًا في الرحلة.¹³

4- في أعماق الرحلات الجزائرية :

- اعتمد كتاب الرحلات الجزائريين في نقل الأخبار، على مشاهداتهم الشخصية، أو على مرويات الآخرين المسموعة والمقروءة وكثيراً ما كانت المعارف المعروضة من قبلهم مباشرة ينعدم فيها التحليل والتعليل، لتدخل فيها عواطف الرحالين ومواقفهم وأحكامهم الذاتية.

- اعتماد السرد أسلوباً أساسياً لحكاية الأحداث ووصف المواقف والشخصيات.

- تجلّى مستويين من التعبير في عملية السرد: ابتدائي وثنائي، اختص الأول بحكاية الأحداث، أو وصف الشخصيات المنجزة لها، كما خص الأغراض الخطابية، كغرض التفسير أو الاستشهاد أو التعليق.

- استعمال الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل في حكاية الأحداث، مع غلبة السرد التابع بزمان الماضي، وهو الشكل التقليدي للقص، والشائع في الأجناس القصصية المختلفة، كالرواية والقصة والمقامة، لتوافقه مع التسلسل التاريخي للأحداث.¹⁴

- التنوع السردى، كالتشويق بتقنية المدد السردى، كذلك السرد بصيغة المتكلم، وافتتاح الرحلات بمقدمات تنبئية، يصطنع فيها السرد بضمير الغائب.

- تعدد أغراض الخطاب في سرد الرحلات كالتعبير والتأثير أو الإقناع والتفسير والاستشهاد والتعليق، مع غلبة الوظيفة التعبيرية دائماً.

- وضوح التباين الزمني بين حكاية الرحلة وأحداث السرد باستخدام تقنيّتي: الاسترجاع أو العودة إلى الخلف وهي الغالبة في الرحلات- والاستباق أو سبق السرد للأحداث.

- تباين الأنساق النصية في نصوص الرحلات، حسب سياق الكتابة واختيارات الكتاب لأسلوب السرد، وتفضيل نسقي السرد الجمل، والتوقف، وهذا بسبب طول زمن الرحلة، تأثير كتابها بالأدب الوصفى القديم عامة، وإعطاء المكان قيمة جمالية فنية، إضافة إلى قيمته التاريخية الواقعية.

- عرفت الشخصيات الفنية في الرحلات الجزائرية بصفات عامة كالواقعية، وتمثيلها لذات الفرد أو لروح الجماعة، والتسمية بأسمائها وأياها وتوزعها عبر مراحل الرحلة المكانية.¹⁵

- أنجزت الشخصيات أفعالاً انتظمت في وظيفتين: وظيفة فاعلة، ووظيفة ثانوية، وطبيعي أن تكون الوظيفة الأولى هي المسيطرة على مسار الأحداث.

- استعان كتاب الرحلات بالشواهد الشعرية، واعتمدوا أكثر على الجمل الطويلة في النصوص وهو النمط الذي يناسب القصص، وكذلك كان الميل عندهم إلى التقديم والتأخير، واستعمال أساليب البيان والبديع، غلبة السجع والمحسنات البديعية الأخرى، التي تعكس سمة الكتابة الفنية آخر العهد التركي.¹⁶

- قلة ظهور أسلوب الحوار الخارجي ونجوى النفس في الرحلات، واتسامهما بالتقريرية أحيانا، وبالبساطة دائما، مع قصر التعابير المتصلة بذلك لضيق ذات الكاتب عن هذا النوع من التقنية الفنية، التي دخلت في الأدب العربي.

لقد كان للرحالين الجزائريين في العصر الحديث عناية كبيرة بالطريق والمسلك المتبع للوصول إلى المقصد المشرقي، والحاجة على إفادة قرائه، وتعريفهم بأسماء الأماكن المجتازة، أو المقصودة، وبمواقعها الجغرافية، والخصائص الطبيعية لأراضيها، وهوائها، ومائها... وعلى اجتهداه في الوصول بسرده ووصفه إلى إيجاز المعلومات وتقديم الكافي منها الذي يعرف بالمكان من النواحي : الثقافة والاجتماع والحضارة، وتعتبر هذه الموضوعات في مجال الأدب، جزئيات من جانب المحتوى، أو ما يعرف بالمتن، وإن الكتاب الرحالين، يتفاوتون فيما بينهم في إدراج هذه المادة ضمن نصوص رحلتهم، ويختلفون في درجات الدقة، والموضوعية تبعا لفترة الكتابة الزمنية وميول الكاتب الشخصية وأغراضه في السفر والتدوين، وظروف الكتابة والعوامل المحيطة بها.

مما سبق ذكره، نستنتج التنوع في الوظائف السردية في الرحلات، مع تفاوت فيما بينها، وقد غلبت الوظيفة التعبيرية على الوظائف الأخرى، إذ ان الرحلات تزخر بمواقف تدعو الى التعبير عنها كمواقف الفرح، والحزن والغضب، والخوف، وغير ذلك من المشاعر الذاتية الخاصة بالرحالين.

المستوى	الرحلات			
	مقدمة نفح الطيب	مقدمة نحلة اللبيب	نزهة الأنظار	في رحلتي للمشرق والمغرب
الابتدائي	من 02 / 13 و 03 / 14 من 06 / 26 من 03 / 32 من 16 / 32 من 11 / 35 من 08 / 41 من 12 / 54 من 05 / 56 من 05 / 58 من 02 / 66 من 05 / 67	من 07 / 03 من 04 / 3 من 4 / 10	من 02 / 4 من 4 / 7 من 02 / 11 من 03 / 16 من 03 / 79 من 02 / 87 من 08 / 105 من 127 / 124 من 16 / 127 من 10 / 447 من 11 / 655 من 08 / 698	من 07 / 91 من 08 / 92 من 11 / 96 من 03 / 100 من 15 / 102 من 06 / 106 من 04 / 109 من 02 / 110 من 09 / 115 من 06 / 118 من 07 / 120
الثانوي	من 13 / 2 و 05 / 34 من 03 / 44 من 03 / 55 من 03 / 65 من 05 / 69	/	من 01 / 04 من 06 / 84 من 04 / 237 من 08 / 283	من 05 / 92 من 06 / 96 من 03 / 98 من 08 / 101 من 02 / 119
				من 07 / 126 من 03 / 127 من 03 / 128 من 03 / 131 من 13 / 133 من 03 / 135

الرحلات ومواضيعها		المستويات	
أحمد العربي	من مقدمة نفح الطيب	المستوى المتقدم	
		الشكل الأول	الشكل الثاني
أحمد العربي	من رحلة في المشرق والمغرب (مختلطة)	- لم أكن تلك التواضع... - كم اشتدت وأبقي التواضع... - عاشقة... - أثر جد بنا السهر... - ساعت الظنون، وثرات في... - صورها الملون... - وصلنا إلى مصر المحروسة... - من 35	- صرت أشير إليها... - كنت أذهب عن الوجود... - كنت قبل رحلتي... - من أظها... - من 62
	من مقدمة نحلة الطيب	- لما زرت القدس... - مكتوب... - مورنا ذات يوم بالميدان... - الأخضر ورقة 4... - إني كنت له بعض المكتوب... - وكم بنى منها بل باني مدينة الدلا... - ورقة 10... - ولما قل بعض أهل مصر... - وقصد التورية قلت... - ورقة 33	- إن الشيخ شحني الدين بن العربي... - كان يتره... 04 - كثرت لسدي علي التماسي... - منه شرح الزبد... - كتب إلي يستعيني أمير دمياط... - ورقة 20 - ورقة 22 - كنا نخوض في شأن الحضارة... - ورقة 23 - كتب بعدها نثرًا يطلب... - الإجازة... - ورقة 33
أحمد العربي	من مقدمة نحلة الطيب	- لما دخلني الأشواق... - فقلت لأبدي العيش... - لما شرعت في التقييد... - إني حرمت علي الرحلة... - من 10	- كثيرًا ما كان يصدر علي... - فإن المحال المحترمة لم تزغ تفرغ... - علي... - الحال فيها... - كثيرًا ما كنت أرتاح إليه... - يرغ مدانيه علي... - من 39
			- ليس يظهر بمراد من لم... - يتابع... - وإذا أسرع إلى من لا... - يغيب من... - التمسك إليه بالوسيلة... - المعظم من... - وإذا لا ماور من التلق... - إلى منزل... - من 10

- الهوامش:

- 1- يحيى العيد، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبقة الثالثة، 1995م، ص 225.
- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م، ص ص 83-2.84.
- 3- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص 190.
- 4- سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجري (ق17م-18م)، بحث في مضامين الخطاب الرحلي وخصوصيات الأسلوب، الطبعة الأولى، 2011م، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ص 114.
- 5- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي-دراسة تطبيقية-دار الآفاق، الجزائر، الطبعة الأولى، 1999م، ص 132-133.
- 6- Todorov, Tzvetan: **Les Categories du recit litteraire** ,In. Communication 8, Edition Seuil , 1981, p 68. □
- 7- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، 1987م، ص 92.
- 8 - عبد الرحيم المدون، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996م، ص 83.
- 9 - عبد الرحيم المدون، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد، دار السويدي للنشر، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2006م، ص 54.
- 10- Raland Barthes : **Introduction à l'analyse structurale des recits**, In. Poetique du recit, Paris, édition Seuil, 1977, p 13.
- 11- حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م، ص 38.
- 12- نفسه، ص 40.
- 13- والاس مارتين، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، 1988م، ص 42.

¹⁴ – Marc Four nel : **La Tripalitaine; Les Routes du Soudan**, Paris, challanel Aine, Editeur, LIBRAIRIE colonial, 1987, p121.

15 – سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1994م، ص 58.

16 – سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 118.